النثر الأدبي

في القرن الثالث

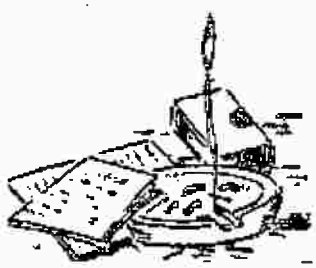

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي

كان عبد الحميد الكاتب وابن المقفع من أشهر الكتاب الذين وضعوا أصول النثر الأدبي الفني في الأدب العربي. وكان عبد الحميد من كتاب الدولة الأموية، وتعد ابن المقفع جانباً من أول عصر الدولة العباسية، وخلفته طائفة من الكتاب تأثروا به تأثراً واضحاً بعيد المدى في تطور النثر الأدبي والكتابة الفنية، ومنهم يعقوب بن داود وزير المهدي، وأبو الربيع محمد بن الليث الذي كتب للمهدي والهادي والرشيد، والقاسم بن سيج، وسهل بن هرون [1]، ويحيى بن برمك، ثم ابناه: جعفر بن يحيى [١٤٢ — ١٨٧ هـ] وأخوه الفضل، والحسن بن سهل [2] وأخوه الفضل [3] واحمد بن يوسف [4] م ٢١٣ هـ، وعمرو بن مسعدة م ٢١٧ هـ والعتابي م ٢٢٠ هـ [5]، ومحمد بن يزداد وزير المأمون [6].

---

(١) راجع: ٥٥ / ١ البيان، ٢٨٢ / ٢ زهر، ٢٦ / ٣ زهر الآداب أيضاً.

(٢) ينبغي بالجاحظ (٨٤ ج ١ البيان)، وله كلمة يعرف بها أنواع الآداب ١٩٥ ج ١ زهر.

(٣) تولاه يحيى البرمكي وضمه الى المأمون (٧٤ المكافأة) وأشاد الجهشياري ببلاغته (١٦ — ١٩ ج ٣ زهر).

(٤) له ترجمة في الاوراق لهم اخبار الشعراء (٢٠٦ ـ ٢٣٦) وكان عالي الطبقة في البلاغة ولم يكن في زمانه أكتب منه وله شعر جيد (١٤٨ ج ٢ زهر)، وكان ممن غلوا بالكتابة (١١ ج ٣ العقد)، وهو أول من افتتح المكاتبة في التهاني والنيروز والمهرجان (٩٥ ج ١ ديوان المعاني.

(٥) راجع ١٧٥ فهرست ابن النديم، ٣٥٢ معجم الشعراء.

(٦) راجع ٤٢٤ معجم الشعراء.

وفي القرن الثالث الهجري بلغ النثر الفني منزلة سامقة ، وامتاز بسهولة العبارة ونقاء الألفاظ وجودة الأسلوب ، كما امتاز بجودة المعاني واختراعها ودقة التخيلة وابتداعها ، وظهور آثار الثقافات الحديثة وخاصة اليونانية فيه ، مع الاحتفال بها والطعن فيما سواها مما شكا منه النقاد [1] ، ومال الكتّاب الى الأطناب حتى قال ابن قتيبة : « ولو كتب كاتب الى أهل بلد في الدعاء الى الطاعة والتحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد الى مروان « أما بعد فاني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى الخ » لم يعمل هذا الكلام في أنفسهم عمله في نفس مروان ولكن الصواب أن يطيل ويكرر ويعيد ويبديء ويعذر وينذر » [2] والاطناب مذهب فارسي حتى في الأساطير وكتابة التاريخ ويقول ابن الاثير : « والعجم يفضلون العرب في الاطالة فان شاعرهم يذكر كتاباً من أوله الى آخره شعراً وهو شرح قصص وأحوال كما فعل الفردوسي في نظم الشاهنامة وهو ستون الف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها » [3] ، ولم يخل الكتّاب في أوائل العصر العباسي الثاني بالبديع ، والتأنق الكثير في الأسلوب ، ويعيب البديع الجاحظ بأن « كلامه بعيد الاشارات قريب العبارات قليل الاستعارات ليس له لفظ مصنوعة الخ » [4] ، كما عابه الباقلاني بقرب كلامه وكثرة الاقتباس فيه [5]

وكان حامل لواء هذه الطريقة الجديدة امام البيان الجاحظ ، واقتدى به كتّاب عصره كالصولي وابن الزيات والحسن وسليمان ابني وهب وسعيد بن حميد وأحمد بن اسرائيل والحسن بن مخلد وابن المدبر وسواهم من الكتّاب الذين نشأوا في هذا العصر وجمعوا بين الأدب والنقد والبلاغة العربية والدخيلة وقرأوا كتب الفرس واليونان والهند وظهر أثر ذلك في تفكيرهم وانتاجهم وآثارهم الأدبية المتعددة الألوان .

آثر الجاحظ الطبع والبعد عن التكلف والتعقيد والحوشية والسوقية ، كما آثر

(١) ص ٢ أدب الكتاب لابن قتيبة بهامش المثل السائر ١ ٤٢ و ٤٣ رسائل الجاحظ حيث يقول الجاحظ : والناشيء من الكتاب إذا وطيء مقعد الرياسة يكون أول بدوه الطعن على القرآن في تأليفه والا يرتضي من الكتب إلا المنطق الخ ، ومثل ذلك يقول ابن قتيبة ، وهذا ينفي رأي ابن الاثير من أن الكتاب والشعراء لم يتأثروا بثقافة اليونان (٢٠ المثل السائر) .

(٢) راجع مقدمة أدب الكتاب (٣) ١ ج ٣ المثل السائر . وقد وجدت رسائل مطولة وكثيرة في هذا العصر كرسالة الخيس (١٠٢ — ١١١ ج ١٢ — ابن طيفور مخطوط) .

(٤) ٨٢ مقدمات البديع ـ القصائد الجاحظية ـ ٢٠٩ ج ٢ زهر . (٥) راجع ١٩٤ اعجاز القرآن .

الوضوح وظهور الشخصية فيما يكتبه من رسائل أو مؤلفات ، واحتال على نشاط القارىء بالفكاهة ومرح الجد بالهزل وبالاستطراد وبراعة الأسلوب وسحره بالرواية والنقد والتمحيص ، والاطناب والايجاز العقلي والتغلغل الفكري ودقة الملاحظة والشرح والتحليل والتعمق . وشمول الفكرة وتقويمها واحاطتها بشتى جوانب الحياة أظهر صفات أسلوب الجاحظ ، وهو مع ذلك منتقد الحاسة للعرب والعربية ، يفضل بلاغة العرب على كل بلاغة ويستشهد بكلمة العربي وبيت البدوي كما يستشهد بحكمة الحكيم ورأي المفكر . وفي انشاء الجاحظ كثير من أساليب الخطابة والجدل . وكان من المحسنين ابن المقفع ونوه بذكره ولكنه لم يسلك مسلكه في الأدب لأنه رأى أفق الأدب أوسع من أن ينحصر على الحكم والمواعظ .

حقًا لقد كان الجاحظ في سحر بلاغته [1] وسمو أسلوبه وشخصيته البارزة في كل فقرة من فقراته وثقافته الواسعة في شتى آثاره الأدبية نسيج وحده وفريد عصره كما يقولون ، ورسالته « التربيع والتدوير » وكتابه « الحيوان » من مظاهر ثقافته الواسعة العميقة . وإذا كان ابن المقفع إمام المنشئين في عصر الترجمة ، فالجاحظ امامهم في عصر التأليف .

وقد تأثر بأسلوب الجاحظ الأدباء الذين آلت إليهم الزعامة الأدبية بعده ، كابن المدبر والحسن بن وهب وابن المعتز الخليفة العباسي الشاعر الأديب المشهور . . وقد ذاع في النثر في هذا العهد ألوان كثيرة : كأدب التهكم والسخرية ، والرسائل الاخوانية ، والرسالة الأدبية والترفيع ، والمقامة ، والأدب الوصفي ، وأدب الطبيعة ، وأدب القصة ، وسوى ذلك من فنون النثر الأدبي في هذا العصر الزاهر المتعدد الثقافات .

وقد ألفت في هذا العصر كتب أدبية جامعة : كالبيان والتبيين ، والحيوان للجاحظ وأدب الكاتب وعيون الأخبار لابن قتيبة ، والكامل للمبرد . وكذلك وضعت أصول النقد والموازنة والبيان على يد الجاحظ وابن سلام وابن قتيبة وابن المعتز وقدامة بن جعفر وسواهم ... ولاعجب إذا قلنا إن النثر الأدبي قد بلغ غاية نهضته وعنفوان قوته في هذا العصر الخالد .

(١) يقول الجاحظ من رسالة له الى ابن الزيات : لحن أعزك الله لسحر بالقول وشبه بالبيان (١ ٣٩ دلائل الاعجاز)